الرحلة الاخيرة

(١) من مصر الى لندن

اشتدّ الحرُّ في اوائل الصيف الماضي فغادر القطر كثيرون من الذين لم يولدوا فيهِ ومن ابنائهِ ايضاً وجاء معرض ومبلي في البلاد الانكليزية مرغباً في السفر فقصدتهُ رجاء ان اجد فيهِ اشياء انشر عنها في المقتطف ما يفيد قراءهُ . فقمت مع زوجتي واحدى بناتي من القاهرة في الرابع عشر من يوليو قاصدين اوربا بطريق بورت سعيد وكان الحر شديداً يزهق النفوس ولكننا لم نكد نغادر القاهرة وضواحيها حتى انبسطت امامنا مزارع القطن بلونهِ الزمردي يرصعهُ نوّار لؤلؤيّ فشفي النظر اليها وتقدير غلتهِ عن الاهتمام بحر الهاجرة . ومرّت ساعة بعد ساعة ونحن ننتقل من خصب الى محل ومن محل الى خصب والقطار يطوي الارض طيًّا الى ان بلغنا بورت سعيد فلقينا فيها جماعة من الاصدقاء انسونا بانسهم وعناء السفر وساروا بنا الى فندق في قلب المدينة اذ لا بدَّ من المبيت فيها انتظاراً للباخرة الآتية من الشرق الاقصى . واذا المدينة في عيد فرنسا السنوي وقد لبست لهُ الطرحلها . شوارعها مزدانة بالاعلام المنشورة وساحاتها تموج بالخلق الكثير . وكان محافظها غائباً فقام وكيلهُ مقامهُ في الاشراف على حفظ النظام ومنح الجوائز للمتبارين . ولم تكد الشمس تتوارى في الحجاب حتى خلفتها قلائد الانوار ممتدة في الشوارع ومنظومة فوق السفن وتبارت الاسهم النارية تشق عنان السماء وتتناثر كواكب درية تنتظم كالقباب ثم تتساقط كالشهب الثواقب . وجاءنا بعض الفضلاء برقاص وساروا بنا بين السفن نشاهد زينتها وزينة المدينة واوصلونا بهِ في الصباح الى الباخرة مكدونيا من بواخر P.& O. فاذا ركابها كتار من الانكليز والهنود آتين من الشرق الاقصى . وركب فيها ايضاً جماعة من اصدقائنا المصريين ومنهم اربعة من الذين خدموا الحكومة المصرية ولهم او لنويهم شأن يذكر في الاهتمام بمستقبلها . حلمي عيسى باشا وحامد خلوصي بك وحبيب المصري بك ومصطفى عبد الخالق بك

أمرُّ خمسة ايام والسماء صافية الاديم والبحر مرآة من البلور واليدر يبدد حيش الظلام ولا نأخذ باطراف الاحاديث ونطرق ابواب السياسة والاجتماع بل علم الطبيعة

والفلسفة وعلم الاخلاق ونستطرد الى ماضي مصر وحاضرها ومستقبلها والى احوال غيرها من البلدان التي تربطها بها رابطة اللغة اقوى الروابط الاجتماعية في هذا العصر

حلمي عيسى باشا وحامد خلوصي بك وحبيب المصري بك من رجال القانون والقانون عماده المنطق وساسة علم الاجتماع والثلاثة من اهل البحث والتحقيق. ولقد كان لرجال القانون الشأن الاكبر والسهم الاوفر في فك القيود التي قيدت السياسة الدولية مصرها وهم ادرى من غيرهم بالمطالب الاجتماعية التي هي اساس العمران اي التربية الصحيحة والاخلاق القويمة والتعليم العملي والنظر في احوال الامم الغابرة والحاضرة وما رقاها او آل الى انحطاطها . هذه المواضيع طرقناها كلها وما يتفرع عليها .ولقد وددت لو كان معنا من يحسن الاختزال فيدون ما يلقى من الآراء الناضجة والاقوال السديدة

بلغنا مضيق مسينا ولم نرَ باخرة تخوض عباب البحر وكنت في اسفاري السابقة لا يمر بي يوم الا رأيت فيه سفينة او سفناً : وفي مساء السابع عشر من الشهر مررنا امام بركان ستمبولي فرأينا الدخان يصعد منهُ ويعلو بقوة اندفاعه ثم تعصف به الريح فيسير سيراً افقيًّا الى الشرق الشمالي . ولما اشرفنا على الجانب الغربي منهُ رأينا النار متأججة في منخفض بين قنتيه كأن فلكان اقام هناك يحمي حديدهُ ليسبك منهُ اسلحة جديدة لحرب اخرى تهلك الزرع والضرع

نهضت صباح الثامن عشر فتذكرت ان في مثل هذا اليوم منذ اثنتين وسبعين سنة رأت عيناي النور . اثنتان وسبعون سنة اكثرها درس وبحث في نواميس الكون وفيما وراء هذه الحياة الدنيا

سبعون حولاً لقد مرَّت وما وجدت ... نفسي مقرًّا لها في العالم الفاني
فهل اذا عمَّرت سبعين اخرى ترى ... من مرفإٍ بين ابحار وخلجان
كلاَّ واجسامنا والموت يرصدها ... فالنفس مرفأُها في عالم ثانٍ
فرحمان اما فناه والبناء لهُ ... لغوٌ واما بقاه شاءهُ الباني(١)

(١) جريت في هذا البيت على مذهب الفلاسفة الذين يستدلون على خلود النفس بان فناءها يجعل عمل الخالق من قبيل العبث الذي لا يسلم به عقل عاقل . ولم اكد اتم كتابته حتى اعترضني فكر آخر وهو ان في جسم الانسان من التركيب العجيب الذي بلغ ما بلغه بالتطور المستمر مدة قرون لا تحصى بل لكل جزء من اجزاء هذا الجسم من الحكمة والدقة والقصد ما يفوق وصف الواصفين ومع ذلك نراه يموت وينتن وينحل ويرجع الى عناصره الكيماوية وسركباتها فتبقى في التراب او تدخل

اما واجسامنا ليست سوى صورٍ مشكّلات باشكال والوانِ
كهارب حرّكها النفس فانتظمت في شكل مستودع للنفس جثمانِ
حتى اذا تمّ في الدنيا تطوّرها طارت الى منزل في الكون روحانِ
وللتطوّر احكام مقرّرة والنفس والجسم في الاحكام سيّان
لا بدّ للعلم من يوم يفوز بما يُبيّن الحق فيهِ خير تبيان

قد يظن قارىء هذه الابيات ان البحر مضطرب فتولاني الدوار واكثرت الكبد من افراز الصفراء فسار بي الخيال في مهامه مظلمة . فذكرت الموت وبحثت في الحياة والمعاد . كلاّ ليس في الامر شيء من ذلك فالبحر رهوٌ والسفينة كبيرة وارفاق غاية في الانس لكنّ ذلك كلهُ لم يحجب عن عينيّ ان سنة من عمري انقضت والحياة سنون وهي سبعون ومع الشدة ثمانون واكثرها تعب وبلية

بلغنا مرسيليا صباح التاسع عشر من يوليو وكان القطار المعد لنقل الركاب الى لندن منتظراً حيث ترسو السفينة ولكنهُ لا يقوم بهم قبل الساعة الرابعة فرأى الرقباء جوازات السفر وتظاهروا برؤية امتعة الركاب . متاعب جدّت على اثر الحرب تذكيراً بويلاتها

مررت بمرسيليا مراراً ذهاباً واياباً في رحلاتي السابقة وكنت اكتفي بمشاهدة روضها النضر والمتاحف عند مدخلهِ اما هذه النوبة فبعد ان تغدينا في احد مطاعمها ركبنا اتوموبيلاً وقلنا لسائقهِ سر بنا للنزهة ثم عد الى المرفإ وقت سفر القطار . والانسان يركب ساعة في فرنسا ولا يدفع اجرتها خُمُس ما يدفعهُ في مصر . ولم نكن ننتظر الاّ ان نضيع ساعتين ذهاباً واياباً لان مدينة تجارية كمرسيليا مدخلها من مرفإها الى شوارعها ليس فيهِ شيء ترتاح العين اليهِ مخازن سوداء الجدران ومركبات

اجسام النبات ولا نقول ان موته واضمحلاله يجعل عمل الخالق من قبيل العبث فلماذا لا يحل بالنفوس ما يحل بالاجساد . خطر على بالي هذا الخاطر فوقفت حائراً في امري ولكن بعد قليل مر ببالي خاطر آخر ازال هذا الارتياب فعبرت عنه بالابيات التالية ومفادها ان اجسامنا وكل الاجسام مؤلفة من دقائق كهربائية كما اثبت العلم الحديث وهي التي سميناها كهارب جمع كهرب معرب كلمة الكترون . ويقوم اختلاف الاجسام باختلاف عدد الكهارب فيها ووضعها وحركاتها . وعليه فاذا مات الجسم وانحل عناصره الاصلية اي كهاربه التي يتألف منها لا تتلاشى بل تبقى في الوجود كلها ولا ما يمنع ان تتركب ثانية بصورة جسم غير منظور لانها في الاصل غير منظورة اي يكون منها جسم روحاني لسكنى النفس

ضخمة تجرها برادين كالافيال واصوات تصم الآذان من مرور العجل على طرق مرصوفة بالحصى الغليظ — مدينة كهذه لم اكن احسب ان حولها حدائق غناء ورياضاً فيحاء وانها اخذت من ساحل البحر متنزهات بثت فيها الفنادق والمقاصف وانشأت بينها الحمائل ومدّت اليها طرقاً تطيف بها حسب تموّجها كما رأينا الآن

كنت في رحلاتي السابقة اركب القطار ليلاً الى باريس او منها الى مرسيليا فتتعذر عليّ رؤية البلاد بعدها أما الآن فسار بنا القطار والشمس في الاصيل فرأيت حقول الحنطة وكروم العنب وغابات الزيتون تملأ بسيط الارض على مدى البصر بينها المعامل الكثيرة في كل مدينة او قرية كبيرة بعضها لاستخراج المعادن وبعضها لعمل الخزف او الاجرّ. خصب واجتهاد مقرون بالعلم. سرنا على هذا النسق الى ان خيّم الظلام فآوينا الى اسرتنا والقطار يجدّ في سيره لا يني ولا يقف الاّ في بعض المحطات الكبيرة الى ان ادركنا باريس وغادرناها وقد بدت الغزالة وبسطت اشعتها على مروج تتفاوت الوانها حسب نوع زرعها وبكورهِ من فقي او عسجدي او زمردي . وكنا نحسب ان القطار سيصل بنا الى كاله لكنهُ وصل الى بولون فاذا هي مدينة كبيرة كثيرة المعامل. واتفق ان بحر المانش كان هادئاً ساكناً كأن زيتاً صبّ على وجهه والسفينة المعدة لركوب المسافرين من اكبر السفن التي تمخر ذلك البحر لكن الركاب كانوا جيشاً عرمرماً يكاد يتعذر المرور بينهم فسارت ولا نواد ولا ارتجاف الى ان بلغنا دوفر وكان هناك قطر في انتظار الركاب فاسرعنا اليه. والبلاد بين دوفر ولندن مدن وضياع ودساكر وحقول وبساتين لا بور فيها الاّ سكك السابلة . ومما تمتاز به على اراضي فرنسا كثرة بساتين الفاكهة ولاسيما في ضواحي لندن وكثرة القطعان في المراعي كما تمتاز تلك بكثرة كروم العنب وغابات الزيتون . والمعامل كثيرة في البلادين كما يستدلّ من مداخنها التي تناطح السحاب. فنزلنا في فندق يشرف على روض كنسنجتون ويسهل الوصول منهُ الى معرض وسبلي فالقينا فيهِ عصا التسيار . وفي الفندق كثيرون من امم مختلفة اميركان وهنود وبابانيون وصينيون كأنهُ برج بابل . قمنا من بورت سعيد صباح الاثنين وبلغنا لندن مساء الاحد والمسافة بينهما نحو ٢٥٠٠ ميل برّاً وبحراً قطعناها في اقل من ستة ايام ولم تكن منذ مائة سنة تقطع في اقل من ستين يوماً وقد يسهل قطعها في يوم واحد بعد سنين قليلة

معرض ومبلي

كلام عمومي

ومبلي ضاحية من ضواحي لندن اقام فيها الانكليز معرضاً كبيراً يمثل الامبراطورية البريطانية كلها مملكتها وولاياتها عبر البحر ومستعمراتها والبلدان الداخلة في حمايتها وعُرضت فيه كل ممثلات علمها وزراعتها وصناعتها وتجارتها لغرضين جوهريين الاول ادبي وهو زيادة التعارف والارتباط بين اجزاء هذه الامبراطورية والثاني مادي وهو تعريف سكان كل جزء من اجزاء الامبراطورية بما في الجزء الآخر من المواد الطبيعية والوسائل الصناعية تسهيلاً للاتجار وطلب الرزق . وقد كان غرضي الاهم من الذهاب الى لندن هذا الصيف مشاهدة هذا المعرض لعلي ارى فيه ما استفيد منهُ فائدة علمية استطيع بثها في المقتطف لفائدة قرائه . وارى الآن انهُ لو كان هذا المعرض عامًّا كمعرض باريس الذي شاهدتهُ سنة ١٩٠٠ لكانت فائدتهُ اعم ولكن اختصاصهُ ببريطانيا العظمى والبلدان التي عمّرها الشعب البريطاني او ساعد سكانها على تعميرها لا يخلو من فائدة كبيرة كما يجيء . فان سكان الامبراطورية البريطانية اكثر من ٤٦٠ مليوناً او اكثر من ربع سكان المسكونة وبلدانها منتشرة في كل القارات وكل الاقاليم الباردة والحارة والمعتدلة من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ومن اقصى الشرق الى اقصى الغرب وتحوي من كل اجناس البشر الثلاثة حسب تقسيمهم الاخير اي ذوي الشعر الاجعد كسكان بريطانيا وتسلم في كندا واستراليا وزيلندا الجديدة وجنوب افريقية وذوي الشعر السبط كاهالي ملقا وبعض اهالي الهند الشرقية وذوي الشعر المفلفل كسكان الزنوج وتظهر في شعوبها كل درجات الحضارة من ابسطها في زنوج افريقية واهالي استراليا الاصليين الى ارقاها في سكان بريطانيا نفسها وتسلم في كندا واستراليا وزيلندا الجديدة . وكل هؤلاء الاقوام اشتركوا في هذا المعرض او أشركوا فيه وكثرهم توسّع في عرض مصنوعاته وخيرات بلاده حتى اقام فيه سوقاً كبيرة زراعية صناعية تجارية . فكلٌّ من كندا واستراليا انفقت على معرضها مائتي الف جنيه . والهند انفقت ١٨٠ الفاً وزيلندا الجديدة ٨٠ الفاً وكذا بُرْما وجنوب افريقية وهونغ كونغ . ونيوفوندلند انفقت ٥٠ الفاً وكذا تجريا وشاطىء الذهب . ويظهر لي ان هذه البلدان افرطت جدًّا في الانفاق على تفخيم المباني ولو كانت لأشهُر ثم تنقض وعلى الاكثار مما عرضتهُ فيها من بعض الانواع

وتبلغ مساحة الارض التي خصصت لكل من كندا واستراليا وزيلندا الجديدة نحو ستة افدنة ولكل من الهند وجنوب افريقية نحو خمسة افدنة وهلم جرًّا عدا ما خُصص لبريطانيا نفسها لمعارضها المختلفة كمعرض الصناعة ومعرض الهندسة والمشهد العام ومعرض الفنون ومعرض الحكومة واماكن النزهة والتسلية وعدا مطاعم ليونس المنتشرة في المعرض كلهِ وهي واسعة جدًّا لانها منشأة لاطعام اكثر من مائة الف نفس في وقت واحد يجلس كل اثنين او ثلاثة او اربعة منهم على مائدة

بعد ان شاهدتُ اكثر اقسام المعرض في بضعة ايام دخلت يوماً اماكن النزهة والتسلية الآتي وصفها لاشاهد ما عُرض فيها مما يمثل مدفن توت عنخ آمون ومحتوياته فكاد يتعذر عليَّ الوصول اليهِ لشدة الازدحام فان الناس كانوا موجودين فيهِ كالبحر الزاخر حتى اضطررت في كثير من الاحيان ان اسير معهم الى جهة لا اقصدها لانهُ تعذر عليَّ اختراق جمعهم . وقرأت في جرائد اليوم التالي ان عدد الذين دخلوا المعرض يومئذٍ بلغ اكثر من ١٢٠ الفاً . ويُعلَم عدد الداخلين يوميًّا من مقدار الدخل لان كل داخل يدفع شلناً ونصف شلن وفي كل باب من ابواب المعرض العام آلة كما في ابواب حديقة الازبكية وجنائن الحيوانات تدوّن عدد الداخلين . وكثيراً ما رأيت كلَّ معرض خاص من اقسام هذا المعرض مشحوناً بالمشاهدين . دخلت مرة الطبقة السفلى من معرض الحكومة حيث تُمثل المعارك الحربية ولاسيما معركة زيبروج البحرية فاذا مقاعد المشهد مرصوصة رصًّا بالمشاهدين وبعضهم جالس على درجات السلمين (الموصلين اليهِ) لانهُ في منخفض من الارض فيهِ بركة ماء تُمثل البحر وينزل اليهِ بسلمين كبيرين) ولم يبقَ فارغاً الاَّ بعض الدرجات العليا مع ان التمثيل كان في اوائلهِ فوقفت عليها شاكراً لانني اكون اول الخارجين كما كنتُ آخر الداخلين ونجوت من سماع المقدمة الطويلة التي يلقيها الشارح لما وقع في تلك المعركة . اما المعركة نفسها فتستحق ان يسعى الانسان لرؤيتها من مكان قصي وان يقف لمشاهدتها الساعة والساعتين بوارج تمخر ومدافع تطلق وطرايد تنفجر وسهام تشق حجب الظلام وتصير الليل نهاراً الى ان سُدَّ مدخل الحوض الذي تخرج غواصات الالمان منهُ

واكثر الازدحام يكون في المشاهد كالمشهد المذكور آنفاً ومشاهد السما التي تُمثَّل بها الاعمال الصناعية بكل درجاتها وحول ما يبهر البصر ويسهل فهمهُ وتذكرهُ كالحلي والجواهر . اما الامور العلمية كوضع الكهارب في الجواهر وانتظام الجواهر في البلورات واشكال المكروبات والحشرات فقلما رأيت جماعة تنظر اليها مع انها

ابدع مكتشفات البشر واهم ما يتناول معايشهم

والجانب الاكبر من المعارض اسواق بضاعة يقصد بها بيع ما فيها من السلع او التوصية على مثلهِ لكنني قلما رأيت مَن يشتري او مَن يوصي او يساوم ولذلك لا اظن ان المعرض فاز من باب تجاري لكن ما فيهِ من خيرات البلدان البريطانية كندا واستراليا ونيوفوندلند وزيلندا الجديدة وملفا ودلائل الغنى والرفاهة لا بدَّ من ان يرغّب كثيرين من الانكليز بالهجرة اليها وهذا على ما يبدو لي من اهم اغراض المعرض فان في البلاد الانكليزية الآن اكثر من مليون عامل بلا عمل فاذا كان هذا المعرض وسيلة لترغيبهم في الرحلة الى تلك البلدان الواسعة الارجاء الكثيرة الخيرات فيكون قد وفى باكبر الاغراض التي انشىء لاجلها على ما اظن والاَّ فلا معنى لان نحاول كل بلاد منها عرْض كل ما فيها على الانظار اي مناظر سهولها وجبالها وانهارها وحراجها ورياضها ومعادنها وامثلة من كل ما يستخرج من ارضها من جوهر ومعدن وفحم وزيت وما ينبت فيها من شجر ونجم وحبوب وبقول ومايسوم في مراعيها من غنم وبقر وانواع اثمارها وبزورها وما يستخرج من مواشيها من لبن وزبدة وجبن وصوف ومن نباتاتها من زيت وصمغ وقطن وقنب وكتان وما باتتهُ مصانعها من الفخامة والاتقان فانها صارت تصنع الورق والاتوموبيلات والآلات البخارية وقاطرات سكك الحديد وكل ما يُعمل من ذهب او فضة او نحاس او حديد او عاج او خشب او جلد او زجاج او خزف وما ينسج من حرير او صوف او قطن او كتان . فاسواق استراليا وكندا وزيلندا الجديدة وجنوب افريقية صارت تضاهي اسواق لندن وباريس وجنوبها واثمارها وفاكهتها لا تفوقها فيها بلاد اخرى حتى القطن المصري الكلاريدس الذي اختصت بهِ مصر والقطن السي ايلند الخاص باميركا وهو اغلى جدًّا من القطن المصري رأيت امثلة منهما في بعض هذه المعارض

اهالي لبنان يفخرون بزيبهم (الشب المقدد) ولكن في معرض جنوب افريقية انواعاً كثيرة من الزبيب متدرجة في لونها من الابيض الى الاصفر فالبني فالاسود نسبة الزبيب اللبناني اليها كنسبة النحاس الى الفضة ان لم اقل الى الذهب . لم ادخل معرضاً من هذه المعارض مرةً الاَّ خرجت منهُ آسفاً كاسف البال ولاسيما حينما رأيت معرض فلسطين وقبرص وتفاهة ما فيهما في جنب ما في غيرهما

وسيأتي الكلام على هذه المعارض ومعارض الحكومة نفسها بما يمكن من الايجاز